الأُم .. فى آراء
الفلاسفة .. والأدباء

* ماذا يمكن أن تتعلم الأم من أولادها؟!!

(عاطفة الأمومة تفعل بالمرأة العجائب(*))

* **تقول د. أمينة السعيد :**

أنا من المؤمنات بأن المرأة لا تكتمل شخصيتها، ولا تنضج أخلاقها واتجاهاتها، قبل أن تصبح أماً؛ وذلك لأن الأمومة هى بوتقة الحياة الحق، وفيها تنصهر عوامل النفس إلى مادة أفضل ..

وإذا كانت التربية الصحيحة ترسم الخطوط الرئيسية لشخصية الإنسان، والمدارس تبنى هيكلها العام، فإن الأمومة بمؤثراتها القوية تكمل بناء شخصية المرأة .. ثم تصقل ذلك البناء وتهذبه بما يجعله أقرب ما يكون إلى المعانى الإنسانية السامية ..

ومن خصائص التغييرات التى تحدثها الأمومة، أنها تلقائية تأتى بوحى من النفس .. ولا تجد المرأة غضاضة فى الخضوع لأحكامها الصارمة، مع ما فى ذلك الخضوع من تضحية بطباعها المتأصلة .. بل إنه يَلُـذُّ للمرأة أن تغير طباعها تلبية لدواعى الأمومة ..

وأحب شىء إلى نفسها أن تعيد بناء أخلاقها؛ حماية لأولادها، أو رغبة فى الاحتفاظ بحسن تقديرهم لها ..

(*) الهلال ـ سبتمبر ١٩٥٤ ..

وهى تفعل ذلك عن طيب خاطر، مسوقة بحبها لأودلاها، هذا الحب الذى يفعل بالمرأة العجائب، ويحيلها ـ دون أن تشعر ـ إلى إنسان آخر، موهف الحسن، كريم المقاصد، شديد الرغبة فى تحقيق السعادة لمن حوله عن طريق التضحية التى لا تقف عند حد ..

وليس من شك فى أن أولادنا مدرسة نتعلم فيها أموراً كثيرة، قد تتفق مع اتجاهاتنا الطبيعية، فنتقبلها راضين، أو قد تختلف مع هذه الاتجاهات، ومع ذلك نجد أننا نخضع لها مستسلمين؛ لأن شعورنا نحو أولادنا يغلبنا على أمرنا، ويضطرنا إلى الرضا بما نكره ..

وقد لمست هذه الحقائق فى نفسى كما لمستها فى غيرى من الأمهات .. ولا يضيرنى أن أعترف بأثر أولادى فى حياتى، وما ترتب على هذا الأثر من تغيرات رئيسية فى نواح كثيرة فى أخلاقى، بعضها كنت يائسة من قدرتى على تغييره .. وبعضها الآخر كنت أعتز به، وأعتبره خاصة مميزة لى .. ولكن أولادى أتوا على هذا وذاك، وعلمونى أن أكون غير ما كنت .. ولست آسفة على ذلك؛ فإن ما تعلمته عنهم كان عاملاً هاماً فى تدعيم نجاحى الاجتماعى ..

*** التؤدة والاتزان :**

أذكر من طبائعى التى كنت أعتز بها كل الاعتزاز، تلك الجرأة الشديدة التى لازمتنى منذ صغرى، ونمت مع الأيام ونضجت، حتى أصبحت صفة متأصلة فى أخلاقى، فكنت أفعل ما أشاء، وأقول ما أريد، وألبس ما يحلو لى .. ولا يهمنى إن رضى الناس أو كرهوا، مادمت مطمئنة الضمير إلى عفة مقصدى، نقية القلب أمام الله، الذى هو الحكم الأول والأخير فى نفوس عباده وأعمالهم ..

وكثيراً ما كانت هذه الجرأة تثير العواطف فى وجهى، فأزداد تشبثاً بأساليبى حتى تزول الغمة وينتصر الحق، فيقتنع الناقدون من تلقاء أنفسهم بخير ما فعلت .. وكان

النصر دائماً حليفى فى النهاية، مما ضاعف إيمانى بجرأتى، وحبب إلىّ أن أخوض معركة بعد أخرى؛ لأشهد وألتذ بنصرى الأخير العظيم ..

هكذا كان حالى فى مختلف أطوار حياتى، وليس خافياً عن الناس ما لقيت من عناء أيام الجامعة، وفى بداية جهادى الصحفى .. ولكن هذا العناء على شدته لم يفلح فى التخفيف من وطأة جرأتى .. وبقيت على عهدى لا أعير الرأى العام التفاتاً، حتى جاء أولادى إلى هذه الدنيا، وبدءوا يكبرون ويفهمون ويعون ... فإذا بهم يترسمون خطاى بدافع من محبتهم البالغة لى، وبوحى من عظيم تقديرهم لكل ما أفعل أو أقول ..

وفجأة رأيتنى أكره جرأتى التى كنت أعتز بها وأفخر، وبت أخشى أن ينعكس ظلها على أولادى، فينالهم بعض مانلت، وأشفقت أن يخونهم الحظ، فيخطئوا فيما أصبت ويتألموا .. وتمثل لى ما قد يتعرضون له، وعندئذ وجدتنى أتخلى عن كثير من جرأتى المعهودة ..

وأنحو نحو التحفظ فى كل نواحى حياتى، ثم أزن الأمور بألف ميزان قبل أن أتقدم خطوة إلى الأمام، وغرضى من ذلك أن أُجنِّب أولادى المتاعب، وأضمن لهم طريق السلامة فى الحياة .. وقد يقال إننى جبنت، ولكنى لا أرى فيما فعلت أى معنى للجبن، وأعترف بأن التؤدة والتروى والاتزان، ارتفعت بشخصيتى إلى مستوى أفضل .. وضاعفت إيمان الناس بقدرتى على التوجيه السليم ..

* **العناية بالقراءة :**

وحب الاستطلاع ـ كما نعلم ـ من خصائص الطفولة، وقلما نجد بين أبنائنا من لا يلقى بالأسئلة فى كل أمر من أمور الحياة، ولا أظن إلا أن غيرى من الأمهات تعرضن لما تعرضت له من امتحانات عسيرة فى المعلومات العامة : **كيف تطير الطائـرة؟ وبماذا يسير القطار؟ وما السبب فى الرعـد والبرق؟ .. إلى غير ذلك**

مـن الأمور الكثيرة، التى يسعى أولادنا إلى معرفتها بدافع حب استطلاعهم الغريـزى..

وأشهد أننى كنت أنجح كثيراً فى الإجابة عن أسئلة أولادى، عندما كانوا صغاراً، وعقولهم تدور فى محيط محدود، ولكن المهمة باتت عسيرة بعد أن كبروا، وتوسعت مداركهم فى طلب المعلومات ..

كانوا يسألوننى فى مواضيع لم أردسها أو أتخصص فيها .. فكنت أتهرب من الإجابات الصعبة بأساليب كنت أظنها ماهرة .. ولكن الحقيقة لم تخف عنهم .. وإذا بى ألاحظ فى عيون أولادى لوناً من الاستهانة لم أعهده من قبل .. وثارت كرامتى لذلك، فعكفت على الكتب العلمية والأدبية أغترف من مناهلها اغترافاً، حتى أكون على دراية بأكبر قدر ممكن من المعلومات، فلا أظهر أمام أولادى بمظهر قاصرة الذهن أو الجاهلة ..

وأعترف بصراحة أننى بدأت القراءة إرضاء لأولادى، وحفظاً لكرامتى بينهم، فلما ثابرت عليها، أصبحت عادة متأصلة فىّ، وازدادت بفضلها معلوماتى زيادة ملحوظة، كان لها دورها فى نجاحى العلمى والاجتماعى ..

* **الحلم .. والصبر :**

أذكر فيما أذكر من حِكَم الأمومة وعِظاتها، حادثاً صغيراً كان له أبعد الآثر فى نفسى؛ إذ ترتب عليه جهد كبير بذلته راضية مختارة فى سبيل علاج داء خلقى كنت أعرف بوجوده فىّ، ولكنى لم أكن أقدر خطورته حق قدرها، حتى نبهنى إليها أولادى بطريقتهم الخاصة ..

وكان هذا الداء قديماً، صاحبنى منذ وجودى فى هذه الدنيا، فعرف عنى أهلى وأصدقائى وزملائى، أنى ذات طبع عنيف، أثور لأتفه الأسباب، وأقول الحق، وأننى كنت أخرج فى غضبى عن حدود الاعتدال والوقار، فأخطئ فى حق نفسى وفى

حق الناس، ثم لا ألبث أن أهدأ، فآسف على ما بَـدَرَ منى، ولكن بعد فوات الآوان..

وكثيراً ما كان أهلى ينصحوننى بمقاومة مزاجى العنيف حرصاً على سعادتى، وكثيراً أيضاً ما خسرت صداقات عزيزة، بسبب الانفعالات العنيفة، ولكنى لم أفلح ـ رغم هذا كله ـ فى مقاومة هذا الضعف الخلقى المؤسف، وبقيت على حالى، إذا حدث ما يثيرنى أفلت الزمام منى، وانفجرت براكين حنقى بغير منطق أو اعتدال ..

وكنت قد عودت أولادى أن يهدءوا فى أوقات نومى، حتى أنال نصيبى من راحة الجسد والذهن، ولكن حدث ذات يوم أن عدت من عملى مرهقة الأعصاب، فتناولت غدائى مسرعة، وأويت إلى فراشى أطلب الراحة ..

وإذا بأولادى يخرجون على عاداتهم فى الهدوء، وكلما طاف النعاس بعينى، فتحوا باب غرفتهم وأغلقوه، فيزعجنى الصوت حيث أنام فى آخر البيت ..

واستبد بى داء الغضب، وأخرجنى كالعادة عن المنطق المعقول، فقمت إليهم فى ثورة شديدة، وأمرت الخادمة بأن تخلع الباب فوراً، وتلقيه من الشرفة إلى الطريق!! ..

وعدت إلى فراشى، وقد عاد الهدوء إلى البيت، فنمت كفايتى، ثم استيقظت فى العصر منشرحة الصدر، وليس فى ذهنى أثر لقصة الباب، ولكنى وجدت أولادى يجلسون معاً فى غم شديد ..

سألتهم عما بهم مراراً، فامتنعوا عن الإجابة، ثم قالوا فى نفس واحد : كيف لا تتوقعين أن نغضب بعد أن نفذت الخادمة أمرك، وخلعت الباب، وألقته من الشرفة إلى الطريق؟..

ونزل الخبر علىّ كالصاعقة، واندفعت إلى غرفة الأولاد، فإذا بالباب فى مكانه، ولم يصبه سوء .. وضج أولادى بالضحك، وقالوا : لقد أردنا أن نريك كيف يسوقك

الغضب إلى ما تكرهين، فلماذا تستسلمين إلى الانفعال، حتى يخرجك عن المعقول؟ ..

وكان درساً خلقياً لا أنساه، شعرت بعده بضآلتى أمام أولادى، فبذلت جهوداً جبارة فى مقاومة ضعفى، ونجحت والحمد لله فى قهر الداء، الذى أعيا علاجه أهلى وأصحابى ..

* * *

(نشيدى .. فى عيد الأُمهات)

*** وتقول د. بنت الشاطئ(*) :**

كدت لا أملك دمعى وأنا أصغى إلى ضجيج الاحتفال بعيد الأمهات، فلقد أرهقنى الشجن، وهاجت بى الذكرى تشدنى إلى الماضى السعيد، الذى ولّى وراح ..

وما نسيت أمى قط، وإنما هاج بى الشجن فى هذا العيد، أن ذكرت ـ لأول مرة ـ أنها مضت قبل أن أغنيها نشيد حبى لها، وعرفانى بجميلها، فلقد لبثت ـ ما عاشت ـ أنهل من حنانها، وأحيا بحبها وإيثارها، وألقى على كاهلها متاعب كفاحى، وهموم طموحى، وأثقال دنياى، دون أن أفكر لحظة فى أن أعترف لها بفضلها، أو أحدثها عن قيمتها عندى ومكانتها فى قلبى، بل لعلى ـ مع الأسف المرير ـ لم أُقدِّر هذا حق قَدْره، حتى رَحَلَتْ، رحمها الله، عن عالمنا .. فأدركت بعد رحيلها أى كنز فقدت، وأى نعيم أضعت ..

وتعود بى الذاكرة إلى الأمس الخالى، فأكاد أنكر أن أكون قد عرفت فيه الشقاء إلا وهْماً، أو ذقت الألم إلا خيالاً ودلالاً ..

(*) الهلال ـ أبريل ١٩٥٦ ..

وألتفت إلى الناس من حولى، فأعجب لمن يشكو، وله أم ..

وأرنو إلى كل صغير فى حضن أمه، فلا أرى فى الدنيا ما يعدل هذه النعمة الكبرى ..

وتسمع أذناى ـ عفواً ـ نَعْىَ إحدى الأمهات، فأرثى للأحياء من بنيها، وإن لم أعرفهم، وأطلب لهم الرحمة من الله ..

وتقع عيناى هنا أو هناك، على أُمٍّ ثَكْلَى، فيذوب قلبى إشفاقاً عليها، فى محنة ثكلها، وفداحة ألمها ..

وأتأمل فى نظام الكون والحياة، فإذا الأمومة هى سر الوجود، الذى لولاه لما عمر الكون، ولا قامت حياة ..

واقرأ كتاب التاريخ، فأفهم ـ كما لم أفهم من قبل ـ لم ارتقت الأمومة فى بيئتنا الزراعية، فصارت فى قديم العصور وغابر الآباد، ديناً يعبده الزارعون، ولِمَ سَمَا أجدادنا بالمرأة إلى مرتبة التقديس والتنزيه، وقد بهرهم أن يروها تحمل أجنة البشرية فى كيانها العجيب، ثم تغذوها بالنبع الإلهى المبارك فى صدرها، وتجد لذتها الكبرى فى أن تذيب حياتها قطرة قطرة، لكى تهب صغارها رحيق الحياة،وعناصر النماء ..

ثم أدرس الأديان، فلا أعجب للعرب فى وثنيتها وقد سَمَّتْ آلهتها وأصنامها تسمية الأنثى، ولا أستغرب أن تعهد السماء إلى الأمهات دون الأباء، برعاية أصحاب الرسالات الدينية الكبرى فى طفولتهم، وأن تختارهن لإعداد الأنبياء الأربعة الذين حرروا البشرية من وثنيتها الضالة :

فإسماعيل، عليه السلام، تركه أبوه «سيدنا إبراهيم» رضيعاً مع أمه «هاجر» بواد غير ذى زرع، لتكون لهفتها عليه، ومسعاها المثير فى سبيل نجاته من الهلاك ظمأً حديث التاريخ وعبرة الدهر، وصورة تخلد فيها هموم الأمومة، وتقدس آلامها، حتى تغدو عبادة وصلاة ..

و «موسى» ـ عليه السلام ـ يَكِل الله إلى أمه أمر حمايته وليداً ورضيعاً، ويوحى إليها أن تنقذه من المذبحة التاريخية الهائلة، التى لم ينج منها غلام لبنى إسرائيل إذ ذاك ..

و«عيسى بن مريم» ـ سلام الله عليه ـ اصطفى الله أمه، واختارها دون النساء جميعًـا؛ ليودعها سره الأقدس، ويجعلها وابنها آية للعالمين ..

و «محمد» ـ صلى الله عليه وسلم ـ مات أبوه وهو جنين، فكانت «آمنة» أُمًّـا وأباً لليتيم المصطفى؛ ليبعث بآخر رسالات السماء ..

ولقد كنت أحفظ منذ الصغر، حديث النبى الكريم :

ـ «الجنة تحت أقدام الأمهات» ..

فلا أكاد أحقق معناه الجليل أو أدرك مغزاه النبيل، لكنى اليوم أعود فأتلو سيرة الرسول من جديد، وأنا «أم» فأدرك ما غاب عنى من ذلك الحديث الشريف ..

* * *

رووا أن «معاوية الجهمى» ـ أحد أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ـ جاءه يلتمس الإذن بالجهاد معه، ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، فسأله صلى الله عليه وسلم :

ـ أحية أمك؟

أجاب :

ـ نعم ..

فأمره الرسول أن يرجع فيبرها. لكن معاوية عاد من جانب آخر، فأعرب للنبى عن رغبته فى الجهاد معه، وأعاد الرسول سؤاله :

ـ **أحية أمك؟**

وإذ أجاب بنعم، لم يأذن له فى الجهاد، بل أمره أن يرجع إلى أمه فيبرها.

وعاود «معاوية» استئذان الرسول ـ للمرة الثالثة ـ فى الخروج معه إلى الجهاد، فما كان منه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا أن قال، وقد علم أن أم «معاوية» على قيد الحياة :

ـ **«ويحك، الزم رجلها، فثم الجنة»** ..

ولم يجعل الرسول إسلام الأم شرطاً للبرّ بها، بل قرر أن هذا البر حق لها لا يهدره الكفر. حدثت «أسماء بنت أبى بكر» قالت :

ـ قدمت أمى علىّ، وهى مُشْرِكَة، فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستفيت الرسول قلت : إن أمى قَدِمَتْ وهى راغبة (فى صلتى) أفأصل أمى؟ قال عليه الصلاة والسلام : **«نعم، صِلِى أُمك»** ..

ولا نعرف مشهداً كان أشد إثارة لعطف الرسول ورحمته وإكباره من مشهد الأمومة فى حنوها على ولدها .. وأذكر من مواقفه الرائعة أمام هذا المشهد المثير ما رواه «عمر بن الخطاب» ـ رضى الله عنه ـ فقال :

ـ قَدِمَ على النبى صلى الله عليه وسلم سبى، فإذا امرأة منهم قد تحلب ثديها، إذا وجدت صبياً فى السبى، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. قال لنا الرسول : **«أترون هذه طارحة ولدها فى النار»** ؟ قلنا : «لا، وهى تقدر على ألا تطرحه». فقال : **«الله أرحم بعباده من هذه الأم بولدها»**.

وأخرى ... حدثنا عنها «عبد الله بن عمر» فقال :

ـ كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فى بعض غزواته، فمر بقوم فيهم امرأة تحصب تنُّورها، ومعها ابن لها، فإذا ارتفع وهج التنور تنَحَّتْ به .. فأتت النبى صلى الله عليه وسلم، فقالت :

ـ «أنت رسول الله» ؟

قال : «**نعم**» ..

قالت : «بأبى أنت وأمى، أليس الله بأرحم الراحمين ؟»

قال : «**بلى**» ..

قالت : «أوليس الله أرحم بعباده من الأم بولدها ؟»

قال : «**بلى**» ..

قالت : «فإن الأم لا تُلقى ولدها فى النار» ..

فأكب رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكى، ثم رفع رأسه إليها، فقال :

ـ إن الله لا يعذب من عباده إلا المارد المتمرد، الذى يتمرد على الله، ويأبى أن يقول : لا إله إلا الله» !!

وثالثة ...

أتته، صلى الله عليه وسلم، امرأة تحمل صغيرها، فقالت فى ضراعة ولهفة وأسى:

ـ «ادع له، فلقد دفنت ثلاثة» ..

قال الرسول الكريم فى رقة ورحمة :

ـ «**دفنت ثلاثة ؟**» ..

فأجابت الثكلى : نعم ..

قال : «**لقد احتظرت بحظار شديد من النار**» ..

* * *

ذكرت هذا كله فى عيد الأمهات، فوددت لو أنى وعيته حق الوعى قبل أن أفقد أمى ..

وتمنيت لو عاشت؛ لأحتفل بها اليوم مع المحتفلين، إذ يذكرون تلك التى تهبهم من حياتها حياة، وتمنحهم من صحتها وراحتها ما يحمى وجودهم، حتى مع البؤس والهزيمة، ويحتفظ لهم أبداً بشعاع من النور، مهما تتكاثف الظلمات .. أما وقد شطت بها النوى وعز اللقاء، فليس لى إلا أن أحتفل بالأمومة فى عيدها فأتحدث إلى أبنائنا عن قدسيتها وجمالها، وأهتف بالنشيد الذى وددت لو سمعته أمى قبل أن تمضى :

«أمى ..

«يا جمال الوجود ونور الحياة ..

«يا منحة السماء للأرض، ويا آية الله فى الكون، ويا ملاكاً فى صورة بشر ..

«يا أجمل من الحب، ويا أغلى من الصحة، ويا أعز من الحياة ..

«يا ذات الصوت الساحر النغم، واليد المباركة اللمسة، والنظرة التى تفيض حناناً، وتشع نوراً ..

«يا كنزى المدخر، ويا ملاذى الأوحد فى هذه الدنيا ..

«عندك وحدك يجد ابنك الأمان والحب، حين تنبذه الدنيا خاطئاً، وينفض الناس من حوله مهزوماً، ويبتعدون عنه عليلاً مريضاً .. وبك يا أم، أستطيع أن أعرف الله وأرى الجنة» ..

* * *

أردد هذا النشيد، ثم لا ألبث أن أذكر غيرى من اليتامى المحرومين من النعمة الكبرى، فأوثر أن تكون هدية قومى للأمومة فى عيدها، هى أن يدبروا لحماية هؤلاء اليتامى، ويهيئوا لهم نفحة من عطر الأمومة، وقبساً من نورها، يعصمهم من الظمأ، والضياع فى تيه الوجود ..

* * *

الأم : ليست والـدة ..
والوالدة : ليست أماً ..

* ويقول أنيس منصور(*) :

ـ يوم القيامة ينادون علينا بأسماء أمهاتنا، فيقال : فلان بن فلانة .. تعال إلى النار أو إلى الجنة ..

وفى كثير من القبائل البدائية يعرف الإنسان باسم أمه .. وقبيلة والدته.

وبعض الدول الأوربية ماتزال تنسب الابن إلى أسرة الأم ..

وفى جوازات السفر يشترطون اسم الأم؛ ليعرفوا إن كان صاحب جواز السفر ابناً شرعياً، أو لقيطاً، فاللقطاء لا أحد يعرف لهم أماً .. ولكن بيوت اللقطاء تخترع للطفل أى أب ـ أى اسماً لأى أب ..

وفى الديانة اليهودية : أن الذى أمه يهودية هو اليهودى .. والذى أبوه يهودى ليس يهودياً، لأن كل إنسان على يقين من أمه، وليس على يقين من أبيه .. فإذا مات الأب اليهودى تردد أولاده أن يسيروا فى جنازته .. ولكن إذا ماتت الأم، فهى الأم حقاً ..

وقد اخترع العلم الحديث مشكلة جديدة!.

فمنذ ست سنوات تماماً عرف العالم كله أول طفل من أنبوبة ..

فطفل الأنبوبة هو الذى ولد من بويضة أخذت من أم، ثم لقحت البويضة من حيوان منوى فى أنبوبة .. فالأنبوبة بما فيها من أحماض ودرجة حرارة خاصة تقوم بدور الرحم ـ فإذا تم تلقيح البويضة، نقلت إلى رحم الأم ..

(*) غرباء فى كل عصر ..

والمشكلة الجديدة التى أمامنا هى : أن هناك زوجين غير قادرين على الإنجاب .. لعيب ما فى الرجل أو عيب فى الزوجة أو فيهما معاً ..

والحل : أن نأخذ بويضة الأم ونلقحها بحيوان منوى لزوجها، أو بحيوان منوى من بنك الحيوانات المنوية، ثم نعيد البويضة الملقحة إلى رحم الأم .. فهى الأم، وإن لم يكن زوجها هو الأب البيولوجى ـ إنه هو الأب القانونى .. الأب الشرعى ..

أو نأخذ بويضة الأم وحيواناً منوياً من الرجل ونلقحها .. وبعد التلقيح ننقلها إلى رحم سيدة أخرى .. وفى رحم هذه السيدة ينمو الجنين .. وعندما يولد، تعطيه هذه السيدة إلى صاحبى البويضة والحيوان المنوى .. فهى حامل بالنيابة أو أم بالنيابة ..

أى أننا الآن أمام : الأم التى لم تلد، والوالدة التى لن تكون أماً ..

فعندنا : الوالدة ..

وعندنا : الأم ..

وعندنا الأب البيولوجى، أى صاحب الحيوان المنوى ..

والأب الشرعى : الذى هو زوج لهذه السيدة التى لقحت بيضتها من حيوانات زوجها، ثم وضعت البويضة الملقحة فى رحم سيدة أخرى!.

والمشكلة : أن القانون الحديث لم يعرف إلا الأب الشرعى .. الأب بنص القانون..

ولم يعرف إلا الأم الشرعية ..

ولكنه لا يعرف الأب البيولوجى .. ولا يعرف الأم الحامل بالنيابة أو الوالدة التى ليست أماً لطفلها .. وإنما هى قد استأجروها لتحمل ولداً!..

وفى استراليا قصة نموذجية .. فقد أعلن زوجان أنهما يريدان طفلاً .. وأنهما على استعداد لدفع مبلغ كبير من المال ..

ونشرت الصحف هذا الإعلان ووافقت إحدى السيدات .. وجاء الطبيب وأخذ بويضة من الزوجة وحيواناً من الرجل .. وتم التلقيح ونقلت البويضة إلى رحم هذه السيدة .. وحملت وولدت .. ولكنها رفضت أن تسلم طفلها إلى الزوجين ..

* **وأمام القاضى قالت :**

ـ لقد تأثرت لهما .. وحاولت أن أخفف عنهما .. ثم إننى فى حاجة إلى المال .. وأستطيع أن أحمل وألد فى أى وقت .. ولكن بعد أن حملت واستمتعت بذلك ورأيت الطفل .. لم أستطع أن أعطى طفلى لأحد مهما كان الثمن ..

* وسألها القاضى :

ـ ولكن بينكما عقد؟

وهزت السيدة رأسها بما معناه :

ـ ولو...

ورفعت الجلسة، وأعلن القاضى عجزه عن فعل شىء، فليس فى القانون نص عن الأب البيولوجى، والأم الحامل، أو الوالدة بالنيابة ..

ثم توسل القاضى إلى السيدة ومعه كل المحلفين، أن تبعث إلى الرجل المسكين بصورة لابنه من حين إلى حين ..

وفى الجاهلية .. وعند الإغريق والرومان القدامى كانت هناك قاعدة تقول :

ـ «الابن للفراش» ..

أى الطفل للفراش الذى ولد فيه .. فكان الرجل يتزوج امرأة حاملاً .. فإذا ولدت .. فالطفل له ..

وجاءت الديانات السماوية وحرمت ذلك ..

* وقصة أخرى من فرنسا :

فقد مات رجل عن زوجته، ولم ينجب منها .. وبعد وفاته اكتشفت الزوجة أنه قد أودع أحد البنوك بعض حيواناته المنوية لمن يحتاج إليها .. فاتفقت الزوجة مع أسرة المرحوم .. أن تحمل من هذه الحيوانات، وذهبت إلى القضاء وطلبت أن يعطيها البنك هذه الحيوانات؛ لأنها تريد أن تحمل من الرجل الذى أحبته، وكان طلباً غريباً .. وعلى الرغم من أن القاضى أعلن أن هذه قضية فريدة من نوعها .. فإنه وافق على ذلك اقتناعاً بعذاب السيدة، وإيماناً بحبها الصادق لزوجها ..

ولكن البنك رفض، بدعوى أن الفقيد لم يوصِ بذلك لزوجته ..

أما المحكمة فقد حكمت للزوجة ..

ولكن لابد من استئناف هذا الحكم؛ لأن القانون الفرنسى يقول :

ـ «كل طفل يولد بعد وفاة أبيه بأكثر من ٣٠٠ يوم فهو ابن غير شرعى، وقد مات الزوج منذ أكثر من سنة»..

وفى مواجهة هذه المشكلة الجديدة، ومعها أيضاً : توجد فى العالم الآن أكبر تجارة عرفتها البشرية .. تجارة الأطفال، فأطفال العالم الثالث يباعون لأغنياء العالم الأول والثانى .. إنها تجارة «التبنى» .. وما يتبع ذلك من مشاكل قانونية ..

وفى إسرائيل وحدها هذه المشكلة : فإسرائيل التى لم تقرر حتى الآن من هو اليهودى، لا تعرف ما الذى تفعله أمام الآباء الذين يأتون بمئات من الأبناء من أمهات مسيحيات ـ كيف يكون الابن يهودياً؟..

ففى إسرائيل مشكلة المشاكل : هل اليهودى الذى أُمه يهودية وأبوه مسيحى؟ هل هو الذى أبوه يهودى وأمه مسيحية؟ هل هو الذى أبواه قد ارتدا عن اليهودية خوفاً؟ هل هو الذى جاء من زواج مدنى؟ هل هو الذى أبواه يهوديان ملحدان؟ هل هو الذى أبواه تحولا إلى اليهودية، ثم تحولا عنها، ثم عادا إليها؟ هل هو أخيراً الذى تبناه يهوديان؟...

* * *

(الأمومة مثل الحب .. ولكن بلا مقابل)

* **ويقول أنيس منصور أيضاً :**

بعد أن ارتكب آدم وحواء أول خطيئة، هبطا إلى الأرض .. وقالت التوراة :

ـ «ستلدين فى ألم وتشتاقين إلى زوجك الذى يتسلط عليك» ..

ومعنى ذلك أن حواء عوقبت بالشوق إلى الرجل، وهذا الرجل يتسلط عليها .. ومن هذا الشوق تحمل وتلد وتتعذب .. أما آدم فقد كان عقابه بالإضافة إلى حواء هذه، أن يأكل فى تعب وعرق ..

ومنذ ذلك اليوم وكل من آدم وحواء يسف التراب لكى يعيش، وكلاهما تراب الآخر .. حياته ومماته .. بيته ومقبرته .. وتلك هى حكمة الحياة : أن الذى نعيش به .. نموت به أيضاً ..

أما المرأة فتكتمل أنوثتها إذا حملت وولدت، تماماً كأنها شجرة أزهرت وأثمرت، وبعد ذلك تزهر، وتثمر من جديد .. والمرأة تتمنى أن تكون أماً .. ولكن أمنيتها هذه تمر بشروط يحددها المجتمع .. وهى أن تكون أمّـا لرجل يعرفه القانون.

والقانون لا يهتم كثيراً بمدى موافقة الرجل لطباع المرأة أو أحلامها .. وإنما الرجل ضرورى لاستيفاء الإجراءات فقط، وعلى المرأة أن تختار، أو يختاروا لها الزوج القادر على تحقيق رغباتها وأحلامها ..

ولذلك من الضرورى أن يكون «حمل» المرأة شرعياً .. أما إذا حملت بصورة غير شرعية، فالمجتمع يطالبها فوراً بأن تتخلص من هذا الجنين ..

ومن مئات السنين كانت الفتاة تنتحر، أو يتولى أهلها قتلها .. ولكن فى العصر الحديث أباحت بعض الدول الإجهاض .. أو اخترعت لها حبوب منع الحمل، وبذلك لا تحمل، فلا يعرف أحد من الناس ماذا جرى لها ..

وكثير من الدول تحرم الإجهاض، وبعض الدول تراه جريمة، وهى جريمة لا يقدر عليها إلا الأغنياء فقط .. أما الفقراء فالخطيئة هى الموت .. والحمل هو مبرر الموت السريع أو العار الذى يؤدى إلى الموت ..

والمجتمع موقفه غريب من الجنين .. فعلى الرغم من أن الدول تترفق بالجنين، فإن موقفها من الجنين إذا ولد ليس رحيماً، فالابن غير الشرعى يلاقى عذاباً شديداً : هو، وأمه ..

ومن المألوف أن نجد بعض الأدباء يصفون عمليات الولادة، ولكن من النادر أن نجد أديباً يصف ما تعانيه الأم إذا ولدت ابناً غير شرعى .. مع أن الولادة واحدة، وربما كان العذاب فى الولادة غير الشرعية أقسى على الأم .. ولكن المعنى الأخلاقى أقوى وأقسى .. حتى الأدبيات لم يستطعن أن يصفن هذه الحالة التى تعانيها واحدة منهن، وفى ظروف شديدة القسوة ..

إذن فالمجتمع أقوى من الألم .. والأخلاق أقسى من الولادة ..

ولم تكن المرأة من مئات السنين تعرف ما الذى تستطيع أن تفعله لتحدد أطفالها .. إنها تلد .. والرجل يضيق بالزوجة التى لا تكف عن الولادة .. ويضيق أكثر بالاحتياطيات التى يتخذها الاثنان .. ولكن النتيجة واحدة دائماً : المزيد من الأولاد..

ومن المعروف أن دخول المياه الجارية ـ مياه الحنفيات ودورات المياه هو الذى ساعد المرأة الفقيرة على التخلص فوراً من مبررات الحمل ـ وعلى الرغم من كل آلام الحمل والولادة، فإن المرأة تنسى ذلك مع كل حمل جديد .. حتى لقد تصور الرجال أن المرأة «تمثل» عليهم .. وأنه ليس صحيحاً أنها تتعذب أو تتألم ..

ولكن الولادة هى الحادث الخطير فى حياة المرأة الذى يلتقى فيه أعظم لذة بأعظم ألم، وعندما اخترع الإنسان البنج والمواد المخدرة، رفضت بعض النساء استخدام البنج، وكانت حجة المرأة (أن الطفل الذى لا تتألم فى ولادته ليس ولدها) ..

وقد هاجم رجال الدين البنج؛ لأنه يتنافى ما جاء فى التوراة من أن المرأة يجب أن تلد فى ألم .. فكَيف تلد بلا ألم؟ مع أن الرجال الذين يحرمون البنج لم يحرموا على أنفسهم أنهم يأكلون بلا تعب، ويرثون أموالهم بلا عرق ..

وإذا حملت المرأة، دون رغبة منها فإنها تقع فى حيرة : إنها لا تريد الطفل وفى نفس الوقت تريده .. تريده لأنه جزء منها .. ولأنها لا تستطيع أن تقتل طفلها .. ولدها .. قطعة من كبدها .. من قلبها .. وفى نفس الوقت لا تريده أن يتعذب، ولا أن يجوع، ولا أن يكون سبباً فى خلاف مع الرجل الذى تحبه ..

والمرأة إذا أحبَت زوجها، فإنها تحقق له ما يريد، ولو كان أقسى شىء : ألا تنجب أطفالاً، ولكن إذا كرهت المرأة زوجها، فإنها لا تهتم كثيراً أن تحدد نسلها .. وإنما ترى فى زيادة عدد الأطفال مبرراً قوياً للعن الزوج أو الحياة معه ..

وقد وصفت لنا زوجة الأديب تولستوى فى مذكراتها : كيف أنها كرهت الحياة ونفسها وجسمها فى كل مرة حملت فيها، إنها تحفظ لزوجها أسوأ ذكرى لأسوأ شهر عسل .. الليلة الأولى من شهر العسل ..

وبعد أن تتخلص الأم من الجنين .. فإنها لا تنسى هذا الحادث أبداً .. بل إن الكاتبة الكبيرة هيلين دويتش تحدثنا عن حالة مرضية لسيدة كانت تعالجها، هذه السيدة تخلصت من الحمل، وعرفت أنها تخلصت من توءمين، فأقامت السيدة قبرين لهما، مع أنها قد أنجبت بعد ذلك عدداً كبيراً من الأطفال .. فالمرأة لا تنسى أنها قتلت بيدها طفلاً .. طفلها ..

وتروى لنا الكاتبة هيلين دويتش أيضاً أن فتاة تخلصت من الجنين حتى لا تهدم مستقبل حبيبها، وبعد أن تخلصت من الجنين، لم تستطع أن ترى هذه الحبيب؛ لأنه هو الذى أرغمها على ارتكاب هذه الجريمة ..

والرجال لا يعرفون ـ عادة ـ معنى أن تحمل المرأة وأن تلد، ويكون لها طفل؛ لأنهم لا يعرفون معنى الوحدة والملل والمرض والشعور بالنقص الذى تحس به المرأة التى لم تلد ..

والرجال لا يعرفون أيضاً معنى عذاب الولادة والحضانة والتربية، ولا يعرفون أن هذا العذاب نفسه هو الذى يجعل المرأة تكره أنها أنثى، وتكره الجنس، وتكره العلاقة التى تربطها بالرجل. وينفرد الرجل باللذة، وتنفرد المرأة بالألم ..

إن المرأة تكره الجنس فى أحيان كثيرة، أى تكره جنس الرجل؛ ولذلك أحياناً تتجه المرأة إلى بنات جنسها، إلى الصداقة الشديدة التى هى أرحم من صداقة الرجل..

ومن التناقض والنفاق عند الرجال أنهم يرفضون الإجهاض ويرفضون حبوب منع الحمل عموماً .. ولكن إذا وقع الواحد منهم فى كارثة فهو أول من يتحمس ويطالب بضرورة الإجهاض وضرورة حبوب منع الحمل ..

والمرأة تحتاج دائماً إلى من يساعدها فى حالة الحمل والولادة، وكذلك إناث الحيوانات التى استأنسها الإنسان، وإن كانت هناك نساء يستطعن أن يلدن وحدهن دون مساعدة أحد .. وقد لجأت المرأة إلى ذلك فى بعض الأحيان خوفاً من الفضيحة، فماتت ومعها طفلها أيضاً ..

وإذا كانت الولادة ضرورية للمرأة .. أو للأنوثة، فاحتفاظ المرأة بجمالها وجمال جسمها ضرورى أيضاً، والمرأة التى تحرص على إرضاء الرجل هى التى تحرص على أن يكون جسمها سليماً، ولا يتشوه بالحمل أو الولادة، فلا يترهل وتتدلى الأثداء، وإنما تظل البشرة مشدودة؛ ولذلك فهذه المرأة ترفض أن تكون أُمّـا كثيراً أو أُمّـا على الإطلاق ..

وفى رواية «الحرب والسلام» لتولستوى يقول:

ـ «إن المرأة تنظر إلى الولادة على أنها حكم بالإعدام، ثم لا يتم الإعدام ـ مع الأسف ..

وفى إحدى روايات مدام فرناى نجد زوجة قد عرفت أن الرجل الذى طلقها تزوج امرأة أخرى، وقيل إن وجهها دميم، ولكن الزوجة لم تصدق، وأصرت على أن ترى الزوجة الجديدة، وكان وجهها دميماً ..

فقالت : لابد أن لها مزايا أخرى، واستمعت إليها دون أن تدرى .. فوجدت أن عقلها أكثر قبحاً من وجهها .. واتفقت مع خادمتها على أن تراها عارية مقابل مبلغ من المال .. ورأتها عارية تماماً، ولم تجد مبرراً لأن يتزوجها، فذهبت إليه وسألته فقال: إنها تريد أن تكون أُمّـا لأولادى مائة مرة ـ إذا أنا أردت ..

وفى التاريخ العربى يقال إن امرأة اسمها رملة بنت عبد الله قررت أن ترى الزوجة الثانية لزوجها، واسمها عائشة بنت طلحة .. فاتفقت مع خادمة عائشة على أن تراها عريانة مقابل مبلغ من المال، وذهبت الخادمة وأخبرت سيدتها، ووافقت عائشة، بشرط ألا تعلن الخادمة ذلك ..

وقامت عائشة ونزعت ثيابها وراحت وجاءت، ورأتها الزوجة الأولى وتأملتها، وقالت للخادمة :

ـ **«كنت أفضل أن أعطيك ضعف هذا المبلغ ولا أراها ..**

فقد كانت جميلة جداً، وقال عنها زوجها :

ـ **«إنها ليست زوجة واحدة ..إنها حريم»** ..

ولكى تكون المرأة «حريماً» للرجال فإنها تحرص على معالم الأنوثة .. كلها ..

وكما أن الحب ضرورى للمرأة، فالأمومة ضرورة أيضاً ..

غير أن هناك فارقاً بين الحالتين .. ففى الحب تجد المرأة من يبادلها الحب .. من يحاول معها .. وتحاول أن تهرب منه .. أو تشده إليها .. هناك معركة .. ثم اتفاق .. ثم استسلام .. ثم حرص على حالة الاستسلام .. وهناك تفكير وعقل ومنطق وقيم ومبادئ ..

ولكن عندما تحب المرأة طفلها الصغير، فهو حب بلا مقابل .. فالأمومة هنا بلا ثمن .. الأم هى التى تتعب، وهى التى تجد الثمن من متعة تحس بها .. أو أوهام تملأ رأسها .. فالطفل الصغير ليس طرفاً ولا عاقلاً ولا متحدثاً .. ولا توجد هناك قيم ولا مبادئ ..

إنه كأى صغير ولد ليعيش .. ومعه مبرراته، ومعه حقه فى البقاء، هذا الحق لم يكتسبه بتعب، وإنما ولد معه .. والأم تعلم أن هذا الطفل الذى يعتمد عليها يجب أن تعلمه وهو جالس على حجرها، وهو يرضع ثديها ألا يفعل ذلك .. وهو نائم فى حضنها أن يبحث عن حضن امرأة أخرى؟ ..

وأعجب من ذلك أن الأم المعذبة المعقدة الفاشلة المحرومة من حنان الزوج يجب أن تعلم ابنتها معنى الحرية ومعنى حب الحياة، وتقول الأم لابنتها عندما تكبر:

ـ «لا تصدقى كلام الرجل .. امشى دوغرى .. لا تتلفتى وراءك، الرجال مخادعون كذابون .. اسألينى أنا» ..

وتسأل الفتاة : **إن كانت لأمها أية تجارب** ..

ويكون رد الأم :

ـ طبعاً لا ..

ومعنى ذلك أن تجربتها الوحيدة كانت مع زوجها، وهو أبو هذه الفتاة، فالفشل بسبب هذا الرجل والكذب والخداع والخيبة كلها صدرت عن هذا الأب الذى

يعيش مع الأم والابنة فى بيت واحد، ويضحكون ويأكلون ويشربون وينامون تحت سقف واحد ..

فإذا ارتفعت يد الأم ونزلت على خد الفتاة لأى سبب .. فالأم معذورة، فهى لم تضرب ابنتها .. وإنما تنتقم من زوجها .. أى أنها لا تضرب الابنة، وإنما تضرب الأب، وإذا انحرفت يد الأم ونزلت على خد الخادمة كان المقصود هو خد الابنة .. وخد الابنة لم يكن مقصوداً، وإنما هو الأب الذى تقصده الأم .. ولكنها أخطأت الطريق إليه، فتوجعت الخادمة بالنيابة عن الجميع ..

وكان يقال دائماً : إن زوجة الأب هى التى تقسو على أولاد زوجها!!.
والحقيقة أن زوجة الأب عندما تقسو على أولاد الزوج .. فإنما تريد أن تقسو على الزوج فلا تستطيع .. فتضرب أولاده من الزوجة الأخرى ..

ومعنى ذلك أن الأم تضرب طفلها، وإنما تضربه بالنيابة عن الآخرين ..

وأسوأ من الأم التى تقسو على طفلها .. تلك الأم التى تحب طفلها أكثر مما يجب، فلا تعطى لأولادها حرية المشى أو الأكل أو النوم .. إن هذه الأم قد اعتقلت أولادها فى حنانها .. وجعلت نفسها أقدامهم وأيديهم وعيونهم وشفاههم .. وقررت أن تعيش بالنيابة عنهم ..

إن هذا الحب نوع من القسوة، والأم بهذه الصورة تجعل من أولادها عبيداً لها .. وتجعل من نفسها عبداً لهم .. فهم مجموعة من العبيد فى حالة من الالتصاق الشديد .. من الاحتكاك الشديد .. من الحب الخانق .. أو القبلات المميتة ..

وفى جميع الحالات تجد المرأة متعة كبرى فى أن تقوم بدور الضحية : الأم التى يعذبها أولادها .. فتقسو عليهم، أو تحنو عليهم ..

وكثيراً ما أحست الأم بأن الأمومة لعنة، كالأنوثة تماماً؛ ولذلك تبعد أطفالها عن البيئة التى تعيش فيها .. فتبعث بأطفالها إلى المدارس الداخلية، أو إلى مدارس الراهبات

.. أو إلى التعليم فى الخارج. معظم بنات الليل يفعلن ذلك .. معظم الراقصات .. وأكثر كواكب السينما ..

ومعنى ذلك أن هؤلاء الأمهات جميعاً يرين أن حياتهن متعفنة .. وأن أولادهن يجب أن يعيشوا فى هواء أنظف .. وأخلاقيات أسمى .. وفى ذلك اعتراف من كل أم .. بأنها ليست الأم المناسبة لأطفالها .. وأن أطفالها يجب ألا يروا حياتها .. وألا يكونوا على مقربة منها .. وإنما يعيشون بعيداً عن العيون التى تراها، والآذان التى تسمعها .. والأيدى التى تمتد إليها .. وبذلك يكون هؤلاء الأطفال غرباء عن الأمومة وعن بيئة الأم .. وأن يشاركوا أمهم أيضاً فى احتقار حياتها وبيئتها ..

وفى ذلك منتهى التعذيب للأم .. فكأنها تربى أطفالها على احتقارها واستنكارها، والتنكر لها ..

وفى رواية «الاختناق» من تأليف (ترفانى) نجد الأم تقول لابنتها :

ـ «إياك والرجال! أنت ترين أمك .. إنها ضحية لواحد منهم .. فسدت حياتها وتحطم قلبها .. فاجعلى قلبك حديداً .. وتهتكت أعصابها .. فضعى أعصابك فى الجليد .. إن فعلت مثل أمك، أنكرتك .. برئت منك ..

وهذه الأم قد علمت ابنتها أن تتبرأ منها .. وأن تنكرها منذ اللحظة الأولى .. وتنكرها مرة أخرى؛ لأن هذه الفتاة سوف تعيش وسوف تنظر إلى الرجال وتهمس وتلمس وتغمز وتحب ..

وعلى الرغم من أن المرأة تلعن أنوثتها فى كثير من الأحيان فإن رجالاً كثيرين كانوا يتمنون أن تعطى للمرأة فرصة أن تحكم العالم .. المفكر الفرنسى مونتسكيو يقول :

ـ «أعطوها فرصة .. إنها ليست أقل عقلاً ولا ذكاء من الرجل .. ثم إنها أقدر على التنظيم وعلى الصبر منه» ..

والفيلسوف مونتسيكو يرى أن الأمومة هى أعظم رسالة تقوم بها المرأة ويعجز عنها الرجل .. لتربية المواطن تقوم هى بمهمة المدرسة والمستشفى والمعبد والشارع وأجهزة الإعلام والثكنات والملاعب .. كل هذه المهام تقوم بها الأم وحدها دون مساعدة من أحد ..

ولذلك يقول نابليون :

ـ **«أنا أساوى ما صنعته أمى .. فأنا أحد تماثيلها»** ..

ويقول الرئيس لنكولن :

ـ **«ما أعلمه وما أعمله وما أحلم به .. كل ذلك من صنع أمى»** ..

ويقول هيجو :

ـ **«إن الطفل يقول : ماما؛ لأنه لم يتعلم بعد أن ينطق كلمة الله»** ..

* **ويقول شوبنهور :**

ـ اذهب إلى المستشفيات .. واجعل طريقك على السجون .. وأنت ترى ما الذى فعلته المرأة .. الزوجة والأم .. وخصوصاً الأم .. إنها هى التى علمت ابنها الجبن .. فكان وحشاً .. وهى التى علمت ابنها الانحناء الكاذب فكان مغروراً متغطرساً .. وهى التى أرضعت ابنها اللبن .. لينتقم منها فلا يشرب إلا الخمر وإلا دماء البشر .. إنها أمك وأمى ..

أما أنها أمه هو فهذا صحيح .. فقد كانت أمه فى غاية القسوة .. وكانت تغار منه، وكانت تحسده على عبقريته المبكرة .. وكانت تستضيف فى بيتها كل الفلاسفة والأدباء فى عصرها .. وكانت تقفل الباب فى وجه ابنها .. وفى يوم التقى بأمه على السلم وركلته برجلها، وتماسك الابن ليقول لها:

ـ **«سوف تعيشين وتموتين ولن يعرفك الناس إلا على أنك أم شوبنهور»** ..

وهذا ما حدث، فأمه هو تستحق منه أكثر مما قال .. وفعل ..

* * *

(الأمومـــة(*))

* الأمومـــة :

هى رسالة المرأة على هذه الأرض، وشأنها الأول فى الحياة .. وهى حجر الأساس فى الأسرة، وقواعد المجتمع وأركانه منذ قام إلى يوم ينفض ..

وفى الأمومة اجتمعت خلال البر، ونوائبُ الحق، وتبعات الواجب .. وصور البطولة وفضائل الإيثار .. ومواطن الصبر الجميل ..

وكأن الأمومة فى البيت الملكة فى الخلية أو العذراء فى البيعة ..

فيأتيها الفتاة المُدلّة بصباها .. المزهوة بحسنها .. المترقبة من ورائهما لذة الحب وفيض السعادة : أذكرى أن الجمال حر طليق إلا من قيدين، كلاهما أجمل منه : الشرف، والعفاف .. إذا انسلّ منهما عثَرَ فى خطاه الأولى .. وذوَى فى إبان النضرة .. وسلِى ذوات الشعر الأبيض ممن حولك من غوانى أمس : هل دولة الحسن إلا كدولة الزهر؟ وهل عمر الصبا إلا أصيل أو سَحَر؟ .. وهل غير الأمومة تاج للمرأة تلبسه من مختلف الشعر ألواناً؟

جمال الأمومة لمحة من جمال الحياة .. وشعاع من عبقريتها، وهو أحفل أياماً، وأطول مقاماً، وأصدق أحلاماً ..

حُب الأمومة أشهر، وسنون، وبنات وبنون، وأشغال وشئون، وييقى مع الثكل .. ويتقد عند حشرجة الصدر .. ولا ينطفئ إلا بانطفاء القلب ..

لذة الأمومة معنى قُدسى وسِرٌ خفى .. وحال كمناعم الخلد ولذاته، ليس منا إلا من قرأه فى تلك العيون التى رعتنا فى المهود صغاراً .. وسهرت علينا فى فراش المرض كباراً ..

* * *

(*) أحمد شوقى ـ أسواق الذهب ..

(أمـــى التى ولدتنى)

*** هذه قطعة لم تنشر بعد لفقيد الأدب والعروبة، الأمير «شكيب أرسلان» (١٨٧٩ـ١٩٤٦)، كتبها رحمه الله فى صوفر بلبنان فى ٢٠ من يوليو ١٩٣٧، وأرسلها إلى الأستاذ «حبيب جاماتى» بمصر ..**

* * *

رجعت إلى الوطن بعد هجران طويل .. ولا أقدر أن أعبر عن شعورى عندما استنشقت نسيم بلادى الذى حرمت منه، فحرمت معه كل لذة فى الحياة .. فرحت للقاء أُمَّيْن :

ـ الأم التى ولدتنى وأرضعتنى وربتنى .. والأم التى ركضت على أرضها، وتسلقت جبالها، وتغذيت بهوائها، وهمت بحبها .. فرحت للقاء والدتى وبلادى، وكنت أخشى أكثر ما أخشى، وأنا فى ديار المنفى، أن أموت بعيداً عنهما، فلا أشاهد بلادى .. ولا ألثم يد والدتى ..

لا يمكن أن يشعر إنسان بما أشعر به، إلا إذا كانت حالته كحالتى، ومصائبه كمصائبى، فقد بلغت سن الشيخوخة .. وكلما تقدمت بى السن، ورزحت تحت أعباء الحياة، تضاعف فى قلبى حبى لأمى، بل حبى للأمين العزيزتين : الوالدة .. والوطن ..

فأنا اليوم من هذه الناحية مثل الطفل الصغير، وكل يوم يمر علىَّ يزيد فى عاطفة الاحترام والإجلال والتقدير للأم التى بفضلها عشت فى مأمن من الرذائل والدنايا، فما خفضت رأسى أمام أحد، وما خفت من قوى، وما ارتجفت من طاغية وما تململت من صروف الدهر؛ لأن أمى علمتنى منذ أظفارى أن أمشى فى الحياة، وبين الناس رافع الرأس، أبياً شامخ الأنف، وألا أخضع إلا أمام الحق والحقيقة..

أنا أذكر أنها قالت لى مرة ونحن نهبط من بيتنا إلى الطريق العمومية فى بلدتنا بلبنان :

ـ «هذا الجبل يا بنى لا يخاف من الغيوم التى تداعب قمته، ولا من البحر الذى يداعب قدمه، وهكذا يجب أن تكون فى الحياة» ..

كنت فى ذلك الوقت فى عز الشباب .. ولم أنسَ طول حياتى تلك الكلمات التى حافظت على معانيها فى جميع الأطوار التى مرت بى ..

* * *

الأم بركة فى البيت، وعلى الخصوص فى الأسرة الملمومة الشمل .. فكيف بها فى بيت أراد الخصوم أن يقوضوه، وفى أسرة عاش أفرادها معظم سنوات حياتهم فى الغربة والمنفى؟

من أجل هذا .. أقول : إنه لا يمكن أن يشعر إنسان بما أشعر به، إلا إذا كانت حالته كحالتى .. ومصائبه كمصائبى ..

* * *

تسألنى أن أكتب كلمة عن الأم، أو عن أمى أنا .. وهل تكفى كلمة، أو مقالة؟ وهل يكفى كتاب لتدوين كل ما يمكن أن يدونه رجل مثلى عن أمه؟ إننى أحبها؛ لأنها أحبتنى، وأدللها اليوم كما أدلل طفلى؛ لأنها دللتنى وأنا طفل، وأرعى خاطرها؛ لأنها طالما راعت خاطرى ..

وكل خوفى الآن .. أن أضطر إلى الابتعاد عنها مرة أخرى، فيأخذها الله إلى جواره بدون أن ترانى، أو يأخذنى إلى جواره بدون أن أراها .. حفظ الله لجميع الأبناء البررة أمهاتهم إلى أقصى حد مستطاع[1] ..

* * *

(١) الهلال ـ فبراير سنة ١٩٤٧ ..

(أمى عدو الشهرة(*))

*** وقال عباس محمود العقاد : (١٨٨٩ـ١٩٦٤م)**

*** «أمى من أعداء الشهرة، تتطير بها .. ولا تغتبط بها لحظة .. إلا تشاءمت لحظات» ..**

* * *

فى سنة ١٩٣٠ ذهبنا إلى الصعيد فى رحلة انتخابية .. وكان «النقراشى» رحمه الله قائد «التجريدة» كما سميناها يومذاك؛ لأن النقراشى كان كعادته يسير فى ترتيب أعمالها، وتنظيم مواعيدها على خطة عسكرية لا تختل قيد شعره .. وكان نظامها يستلزم فى بعض الأيام أن نستيقظ قبل الفجر لإدراك موعد القطار، فكان القائد اليقظ يسبقنا إلى البكور، ولا تمضى دقائق معدودات حتى تصبح الجريدة كلها على استعداد ..

ونزلنا سوهاج، فاسترحنا بمنزل الأستاذ «محمد حسن المحامى»، وجاءنى الأستاذ يقول :

ـ هل يتسع الوقت للقاء خالك؟

فالْتَـفَتُّ إلى النقراشى أسأله، فقال :

ـ نعم، وزيادة ..

ثم عاد الأستاذ صاحب الدار يقول :

ـ إن الزوارق حاضرة؛ لأننا كنا ننوى أن نَعْبُر النيل إلى «أخميم» ونعود منها قبل إطباق الظلام ..

(*) الهلال ـ مارس ١٩٥٣ ..

فسأله النقراشى :

ـ أولسنا منتظرين حتى يحضر خال العقاد؟!!

قال الأستاذ محمد حسن :

ـ ها هو ذا قد حضر، ولايزال حاضراً، وإن شاء عبر النيل معنا ..

والتفت النقراشى إلى جانبى فرأى شيخاً أبيض الوجه، أميل إلى الشقرة .. وتوليت التعارف بينهما، فحياه «النقراشى» وهو يقول ضاحكاً :

ـ عجباً .. لقد كنت أقرأ فى «الكشكول» و الصحف الشتامة عن «بخيتة السودانية» أم «عباس العقاد»، وكنت أحسبهم يجدون فيما يكتبون، فخطر لى أننى أنتظر رجلاً أسود أو قريباً من السواد حين جلسنا ننتظر خالك .. أما أن يكون رجلاً أشقر له بقايا شعر أصفر، فهذا ما لم يخطر لى ببال ..

وسألنى مازحاً :

ـ لِمَ لَـمْ تكذب الخبر؟

قلت :

ـ إننى لم أكذب أخباراً أكذب من هذه، فما بالى أكذب نسبتى إلى أم سودانية؟ ليس فى الأمر ما يوجب البراءة منه والاهتمام بتكذيبه .. فكم أنجبت السودانيات من رجال يفخرون بالأمهات ..

لقد كانت أسرة «أُمى» من أبويها جميعًـا كردية قريبة عهد بالقدوم من ديار «بكر»، وقد رأيت أحدهم لا تميزه من أم الشمال فى لونه وقامته، وقد بقى بعضهم إلى أيام طفولتنا نعاكسه حين ندعوه إلى أكلة «ملوحة» أو ملوحية؛ لأنهم لم يتعودوا أكلها ..

فكنت أقرأ الأكذوبة عن «بخيتة» السودانية، وقد وقر فى نفسى أنها أبعد من أن تصدق، واقترنت هذه الأكذوبة بأكذوبة أخرى فى ذلك الحين تروى عنى أننى أهمل زوجتى وأتركها تتسكع فى الطرقات .. ولم تكن لى زوجة قط حتى تتسكع فى طريق أو فى بيت .. فلماذا أحفل بما يقال .. وكله من هذا اللغو المحال؟ ..

ولكن هل كانت حكاية «السودانية» كذباً محضاً من الألف إلى الياء؟ ..

كلا .. ويا للعجب! فإن أجداد أمى جميعًـا قد تزوجوا فى السوادن، وكان جدها لأبيها وجدها لأمها فى الفرقة الكردية التى توجهت إلى السودان بعد حادثة «إسماعيل» بن محمد على الكبير ..

وهناك عاش عمر أغا الشريف قبل قدومه إلى السودان، وهو جد أُمى لأبيها، وأبوها هو محمد أغا الشريف الذى اختار «أطيان» المعاش فى قرية من قرى الإقليم ..

والذى يتذاكره كبراء السن الأسوانيون عن عمر أغا الشريف أنه كان رجلاً شديد التقوى، شديد القوة البدنية .. يدرب أبناءه على الرياضة العسكرية كأنهم على الدوام فى خدمة الميدان ..

ولد له محمد وعثمان ومصطفى وحورية وفاطمة، وخطبت حورية وفاطمة فأراد أن يحتفل بزواجهما معاً، ثم علم أن خطيب فاطمة لا يصلى، فأبطل الخطبة فى اللحظة الأخيرة، وقال للوسطاء الذين حاولوا أن يصلحوا الأمر :

ـ إنى لا أزوج ابنتى لتارك صلاة ولا لمحدث نعمة، كلاهما يجحد نعمة الله ..

وشاعت حوادث العبد : قاطع الطريق فى الصحراء، وخافه الجند، وهابه تجار القوافل .. فقال عمر لأصغر أبنائه مصطفى :

ـ أتسمع هذا وتترك ذلك العبد يعيث فى الأرض فساداً؟

فما انقضى أسبوع حتى عاد مصطفى بالعبد مكتوف اليدين ..

وقد مات مصطفى هذا على إثر ضربة من ضرباته أغراه بها فرط قوته، فإنه تصدى لثور هائج فقمعه، وألقاه على الأرض، فلم تنقضِ أيام حتى لقى نحبه، وقيل:

إنها حسد .. ولعلها كانت مزقة فى داخل الجسم من ذلك الجهد العنيف ..

أما «محمد أغا» جدى لأمى فقد كانت فيه تقوى أبيه وصلابته، وكثير من أنفته واعتزازه بكرامته، وقد كان يمزج هذه الأنفة بالعمليات ولا يقصرها على القول أو السلوك ..

ذهب إلى قرى الأقليم ليختار أطيان المعاش، فكان كلما سأل عن زراعة أرض فقالوا له : إنها عدس أو فول .. قال :

ـ لا شأن لى بها، حسبنا من العدس والفول ما استوفيناه فى السنجق (أى الفرقة العسكرية)..

حتى جاء إلى أرض قيل له : إنها تزرع قمحاً وشعيراً، فقال :

ـ هذه أرضى ..

القمح لمحمد أغا والشعير لحصانه، واختارها مع ما بينها وبين الأطيان الأخرى من فرق فى الثمن يبلغ ثلاثة أضعاف ..

ورثت أمى تقواها، وسلامة بنيتها من أبيها وجدها، ففتحت عينى أراها وهى تصلى وتؤدى الصلاة فى مواقيتها، ولم يكن من عادة المرأة أن تصلى فى شبابها .. إنما كن يصلين عند الأربعين ..

ومما وَرِثَتْه عن أبويها حب الصمت والاعتكاف .. كان الناس يحسبون هذا الصمت والاعتكاف من كبرياء فى جدى رحمه الله .. وكانوا يقولون : «**إنها نفخة أتراك**» ..

لكنها لم تكن نفخة أتراك كما توهموا، بل كانت طبيعة تورث وخلقة بغير تكلف، ولم أَرَ فى حياتى امرأة أصبر على الصمت والاعتكاف من والدتى .. فربما مضت ساعة وهى تستمع من جاراتها وصديقاتها وتجيبهن بالتأمين أو بالتعقيب اليسير .. وربما مضت أيام وهى عاكفة فى بيتها أو على حجرتها، لا تضيق صدراً بالعزلة وإن طالت .. ولا تنشط لزيارة إلا من باب المجاملة ورد التحية ..

ومن المصادفة اتفاق والدى ووالدتى فى هذه الخصلة، ولست أنسى فزع أديب زارنى يوماً، وعلم أننى لم أبرح الدار منذ أسبوع، فهاله الأمر كأنه سمع بخارقة من خوارق الطبيعة .. قلت :

ـ لا تعجب يا صاح .. إنها وراثة من أبوين، يؤكدها الزمن الذى لا تحمد فيه معاشرة أحد .. إلا من رحم الله ..

وقوة الإيمان فى والدتى هى التى بثت فيها العزيمة ليلة احتضارى ..

نعم أيها القارئ الكريم ولا تعجب .. فقد احتضرت قبل ثلاثين سنة ونيف، كما تخيل عوادى فى تلك الليلة، فإذا بالوالدة هى الإنسان الوحيد الذى يتحامل على نفسه إلى جانب سريرى ليقنعنى أننى بخير .. وتنطوى على ذلك ساعات وهى على عزيمتها، حتى جاء الطبيب أخيراً وأنبأهم أنه عارض غير ذى بال .. فإذا بالمحتضر قد نجا، وإذا بالمؤاسية قد سقطت مغمى عليها ..

ولا تنكر الوالدة من شئونى شيئاً إلا الورق .. نعم ما هذا الورق؟ . الورق .. الورق الذى لا ينتهى!!

هذا الورق الذى لا ينتهى هو الذى يمرضنى .. وهذا الورق الذى لا ينتهى هو الذى يصرفنى عن الزواج، وهذا الورق الذى لا ينتهى هو سبب الشهرة!!

ووالدتى ـ أيها القارئ ـ من أعداء الشهرة تتطير بها، ولا تغتبط بها لحظة إلا تشاءمت لحظات ..

هذه الشهرة هى التى «تشيل غارتك» .. أى تجعلهم يتحدثون عنك وما تحدث الناس عن أحد وسلم من ألسنة الناس ..

وقلت لها ذات يوم :

ـ لو وجدت لى زوجة مثلك .. تزوجت الساعة ..

ولم أكن مجاملاً والله ولا مراوغاً. فإننى لا أنسى كمال تدبيرها لبيتها منذ صباها، وكنا بفضل تدبيرها هذا ننتفع بالجورب حتى يرث ويبلى .. فإنه يصلح عندئذ كرة محبوكة .. ويغنينا عن شراء الكرات التى لا تحتمل أقدامنا مثل احتمالها..

ولقد توفى والدى وهى فى عنفوان شبابها، وكان لى أخ صغير، فتوفرت على تربيته، وتركت كل شاغل غير طفلها هذا وأبنائها الكبار ..

ولقد ورثت منها كثيراً إلا القصد فى النفقة، وتدبير المال، وحسبى بحمد الله ما ورثت منها، أطال الله حياتها وأبقاها ..

* * *

(أُمـــى)

*** ويقول إبراهيم عبد القادر المازنى (١٨٨٩ـ١٩٤٩م) :**

لا أعرف الأُمهات كيف يَكُـنَ ..

ولكنى أعرف أمى كيف كانت .. وأجمل التعريف بها وأوجز الوصف فأقول : إنها كانت رجلاً، وأحسب أن النساء لا يرضين ثناء كهذا يسلبهن أنوثتهن، وإن سـرَّهن ما فيه من معنى الإكبار .. ولكن أمى لم يكن لها بال تجعله إلى شىء من

هذا؛ فقد اضطرت أن تمحق أنوثتها فى سن يبدأ فيه النساء أو معظمهن يعرفن معنى الأنوثة الكاملة ..

فقد مات أبى وهى فى الثلاثين من عمرها، وأذاقها فى حياته ما سَوَّد الدنيا فى عينيها، وأنساها أنها امرأة كالنساء .. وكان أبى ـ رحمه الله ـ مزواجاً، وكان حبه للتركيات وافتتانه بهن عجيبين .. ومن فرط حبه لهن كرهتهن أنا .. وكان يذهب كل بضعة أعوام إلى الآستانة، فيبقى فيها ما يشاء الله أن يبقى، ثم يعود بزوجة من هناك يعايشها سنوات، ثم يَملها ويشتهى غيرها فيسرحها بإحسان، ويردها ويجىء بغيرها .. وهكذا إلى قبيل موته بشهور ..

وكانت أمى تأخذ بمخنقته، وتدعوه إلى الطلاق وتغلظ له فى القول إغلاظاً عظيماً، وهو مطرق كالذى به حياء، وكان كما حدثنى لا يزيد على الابتسام، فإذا انطلق لسانه فالقول اللين والكلام الطيب .. فقد كان حليمًا طويل البال ..

وتركنى أبى ذا مال، فأكله أخى الأكبر، أعنى أنه أنفقه باليمين والشمال حتى أتى عليه .. فلولا لطف الله لتسولنا أو على الأقل لما أمكن أن نتعلم، ولكان المازنى الآن على الأرجح نجاراً غير حاذق، أو شيئاً من هذا القبيل .. ولكن أمى كانت خادمة مدبرة فوسعها القليل الذى أسعفها به حسن الحظ أن تربينا وتقينا المعاطب، وتحتفظ بكرامة البيت ..

ولست أذم أبى، أو أنتقصه .. وما يسعنى أن أفعل ذلك، وقد كانت أمى تثنى عليه، ولا تنى تذكره بالخير، ولم تنقطع قط عن زيارة قبره فى اثنتين وثلاثين سنة عاشتها بعده، وكنت ربما مازحتها فأقول لها :

ـ وماذا كان يعجبك فى هذا الرجل ..

فتبتسم وتزجرنى بلطفٍ ثقة منها بأنى أهزل ولا أتكلم جاداً، فأتعمد الإثقال عليها وأقول :

ـ **صحيح والله ماذا كان يعجبك فيه ؟**

فتقطب وتقول **عيب يا ولد** وتنظر إلى سبحتها بين أصابعها ..

فأقول : ولكنه كان مزواجاً ..

فتقول :

ـ **يا بنى هذا قضاء الله وقدره، وما كنت أكره له هذا إلا خوفاً عليه ..**

فأقول معابثاً :

ـ **أو غيرة منهن ..**

فتقول :

ـ **يا قليل الحياء، اذهب عنى، اذهب ..**

فأبقى ولا أذهب وأقول : لقد رأيت آخر زوجاته تلك، وأشهد أنها كانت جميلة، وأنه كان معذوراً ..

فيضيق صدرها بى وتقول :

ـ **ألا تنوى أن تستحى ..**

فاسألها من أى شىء ؟

فتقول :

ـ **إنه أبوك ..**

فأقول لأهيجها :

ـ **سلمنا يا ستى ..**

فتصيح بى :

ـ سلمت يا قليل الحياء ..

وتتناول الحذاء لتضربنى به، ولكنى أكون قد ذهبت أعدو، فتقذفنى به، وتعلن إلى أنها لا تريد أن ترى وجهى بعد اليوم ..

ولكنى لا ألبث أن أسترضيها وأستغفرها، وأُقبل يديها ورأسها، فما كنت أطيق أن أدعها عاتبة أو ساخطة أو متألمة، ولو وسعنى أن أجعل حياتها نعيماً خالداً وسروراً دائماً وجذلاً لا تنضب ينابيعه ولا تجف موارده لما قصرت ولا كنت صانعاً إلا بعض ما يجب لها .. فتعفو عنى، وتدعو لى، وتدنينى منها، وتمسح لى رأسى كأنى مازلت طفلاً ..

ولما نجحت فى امتحان الشهادة الابتدائية جاء أخى وابن عمتى مهنئين وأشارا عليها بأن تكتفى من تعليمى بهذا القدر لما كنا فيه من العسر، فأبت فألحا، فأنكرت ذلك منهما وزجرتهما من اللجاجة فيه، فلم ينهزما وأنذرها أخى ـ وكان غير شقيق ـ أنه قابض يده عن كل معونة .. وكانت معونته متقطعة لا خير فيها ولا اعتماد عليها لضآلتها وقلة الانتظام فيها ..

فلم تعبأ بذلك وأصرت على المضى فى تعليمى إلى نهايته المقدورة، وكنت حاضراً هذه الجلسة. وأذكر أن ابن عمتى ـ وكان حاد الطبع ـ سألها بحدة : ومن أين تجيئين بالمال الكافى لتعليمه؟ فقالت معى الله. قال :

ـ فإن الله لا يمطرنا ذهباً ..

قالت :

ـ لو احتجت أن أخدم فى سبيله لما أحجمت، فلا تخافا أن أسألكما شيئاً، وما فعلت ذلك من قبل حتى أفعله من بعد، وإنكما لتتطفلان الآن بالنصح فيما لا يعنيكما ..

قال ابن عمتى وهو ينهض ويشد أخى وبالحضور ..

قالت : «نعم وبالحضور فاذهبا ولا تعودا» ..

ولكنهما عادا؛ لأن أخى من لحمى ودمى، وكان يجل أمى، وكانت هى تحنو عليه، وكان ابن عمتى حاد الطبع، ولكنه سريع الفىء إلى الرضا والاعتذار .. وكانت أمى ـ على صغر سنها ـ زعيمة الأسرة ..

وكان أهلى جميعاً يلجئون إليها يطلبون رأيها فيما يعرض لهم، وفصلها فيما يقع بينهم من المشاكل ..

وقد كان موت أبى وأنا فى التاسعة من عمرى، وكنت مازلت مع الأسف أكبر ابنيها، فصارت تعاملنى على أنى رب الأسرة وسيد البيت، وتعودنى احترام النفس والتزام ما يقتضيه مقامى فى البيت وتستوجبه زعامتى للأسرة، وتنبهنى إلى مسئولياتى وإلى التبعات التى يحملها «رجل» مثلى، وكانت حاذقة فى سلوكها : فلا نهر، ولا زجر، ولا أوامر ثقيلة، ولا نواهى بغيضة، ولا شطط أو إسراف، ولا تقصير أو تفريط، ولا أشعار بأن لحريتى حدوداً ضيقة غير معقولة أو محتملة، وإن كانت الرقابة على هذا دقيقة وافية ..

أذكر وأنا فى المدرسة الثانوية أنى عوقبت مرة بالحضور إلى المدرسة فى منتصف الساعة السابعة صباحاً «السادسة والنصف» وكان هذا عقاباً جائزاً فى ذلك الوقت، وكان البيت فى حى السيدة زينب والمدرسة فى شبرا، وبينهما أبعد مما بين بصرى والحرم .. فأخبرتها وخرجت من البيت .. قبيل الفجر وأنا أخشى أن أكون قد تأخرت، فقلقت وذهبت بها الظنون كل مذهب، ولكنها لم تقل شيئاً، فلما كان الضحى ركبت إلى المدرسة وسألت البواب، فأخبرها أن تلميذاً جاء فى الفجر وأيقظه

ليدخل فرده فظل يمشى حتى طلع النهار، فعادت مطمئنة، ولم تخبرنى بما فعلت إلا بعد عدة أعوام لمناسبة عرضت ..

وكنت وأنا صغير أدخن خفية، وكانت على غير علم منى تراقبنى، فإذا نمت تأخذ ما يكون معى من سجاير، فإذا أقبل الصباح لم أجد شيئاً .. وظللنا على هذا المنوال أياماً أشترى السجاير كلما ساعفتنى الموارد ـ وهى محدودة جداً ـ وهى تسرقها بالليل، ولو أخفيتها فى بئر ثم خفت أن تسألنى فلا أستطيع أن أكذب وخجلت أن أعترف بهذه الحماقة الصبيانية، وحاولت رقة الحال دون الاحتمال فأقلعت .. حتى كبرت ..

ومن حنانها العجيب أنها كانت إذا مرضت ووصف لى الطبيب دواء لا تدعنى أجرع منه إلا بعد أن تجرع هى منه، وكثيراً ما كنت أقول لها :

ـ يا أمى كفى عن هذا ..

فتقول : يا بنى، إنه قلب الأم. فأقول : ولكنه عمل لا نفع منه فتقول : نعم، ولكن ليطمئن قلبى ..

ولما أتممت التعليم الثانوى حرت إلى أية مدرسة عالية أذهب، فسألتنى : «أيها أوثر؟» فقلت : الطب. قالت : فاذهب إلى مدرسته وقدم أوراقك. ففعلت، ولكن ناظرها «المستر كيتنج» رمى بأوراقى إلى الشارع، لأنى يوم الكشف الطبى دخلت قاعة التشريح فرأيت جثة منتفخة تفوح منها رائحة نتن خبيث، فدار رأسى وأغمى علىّ، وكان الناظر مقبلاً فرآنى، فقال : هذا لا يصلح .. فاطردوه ..

وعدت إليها : فأخبرتها الخبر .. فلم تجزع كجزعى، وهونت علىّ الأمر، وقالت: لم يبق إلا الحقوق، فاذهب بأوراقك إليها ففعلت وضمنت القبول، ولكن الوزارة زادت المصروفات المدرسية من خمسة عشر جنيهاً إلى ثلاثين .. فاسترجعت أوراقى

.. فما كان لى قِبَل بهذه الثلاثين كل عام، وشاء الله أن تفتح مدرسة المعلمين العليا فدخلتها ..

واستقلت من وزارة المعارف بعد أن اشتغلت بالتدريس فيها خمسة أعوام، وكانت الحرب الكبرى قد استمرت واستعرت، فجئتها يوماً بقراطيس فيها مرتبى نقوداً فضية، فألقيتها فى حجرها وقلت :

ـ هذا آخر ما أقبض من مال الحكومة ..

قالت : «**يعنى قلت إنك استقلت**»، قالت : على بركة الله ..

ولكنى أرقت ليلتى، فقد كانت الدنيا قائمة قاعدة والأحوال مضطربة، وكانت الحكومة قد أعلنت الموراتوريا : أى تأجيل الدفع الجبرى، فجاءت تسألنى عن سر هذا الأرق، فأفضيت إليها بما يساورنى من المخاوف، وندمى على الاستقالة، وجزعى من هذا الغمار الجديد الذى أقدمت على خوضه فقالت :

ـ لا عليك .. فقد تعلمت كل ما يمكن أن تتعلمه .. فما خير ذلك إذا عجزت عن الانتفاع به فى الحياة .. ولماذا لا تستطيع أن تعمل إلا فى الحكومة أو ليس فى الدنيا غيرها؟

قلت : **ولكن من يدرى إلى أى حد تضيق الدنيا بى؟**

قالت : **لا تقدر البلاء قبل نزوله .. قم فنم وتوكل على الله .. لقد كنت أنا مستعدة أن أعمل بيدى فى سبيل تربيتك، فكن أنت مستعداً أن تعمل حتى بيديك إذا احتاج الأمر، وثق أنك لن تخيب؛ فإنى داعية لك، وراضية عنك ..**

فوالله لقد صرت بعدها إنسانًـا ثانياً ..

وكانت ـ عليها رحمة الله ـ تتوخى أن تعفينى من المنغصات، وتتجنب أن تحملنى الهموم، فتستقل بها دونى، وتتحرى ما يدخل على نفسى السرور، ويشيع

فيها الغبطة والرضا، ويفيض على البيت الإيناس والبهجة، وكانت ذاكرتها قوية، بل لست أعرف لقوتها شبهاً، فكانت إذا جلسنا للسمر تتدفق بأحاديث الأيام السوالف وكأنها تحياها من جديد، فلا يغيب عنها حرف ولا يفوتها لون، وكانت لقوة ذاكرتها سجلاً عاماً للأهل والصواحب، فمن نسى شيئاً فما عليه إلا أن يلجأ إليها!!

وكانت صديقاتها يستودعنها حسابهن، وكثيراً ما كان يحدث أن تجيء الواحدة إليها فتقول لها : إن فلانة «الدلالة» تزعم أن عليّ لها مبلغ كذا، فما هى الحقيقة؟.. فتخبرها الحقيقة، فتقوم عنها، ويكون هذا القول الفصل الذى لا خلاف بعده ..

وكانت قوية الشكيمة، فلا أرى إلا رأيها فى البيت، بل فى الأسرة كلها، وإن كانت صغرى أخواتها .. وكثيراً ما كانت نفسى تحدثنى أن أنازعها السيادة، ولكنى كنت لا أكاد أهم بذلك حتى أرتد .. وكان يكفى أن ترمى إلىّ نظرة وتقول «استحى يا ولد» فيتحلل العزم وأهوى على راحتها باللثمات، وكانت تكتفى بالنظرة إذا أمكن أن تستغنى عن الكلمة، فكنا نتفاهم بالعيون والذين حولنا غافلون لا يفطنون إلى شىء ..

فمن ذلك : أنها لما حضرتها الوفاة قالت : أعطنى ثلاثين قرشاً، ولم تكن بها حاجة إلى ذلك، وكنت قد أعددت عدتى لذلك اليوم، فأدركت أنها تريد أن تطمئن على أن معى ما يكفى لنفقات المأتم .. وكانت جريدة السياسة معطلة والأزمة مستحكمة فأخرجت لها ما معى، وقلت لها : خذى ما تشائين. فأخذت تدسه تحت الوسادة، فظل حيث وضعته حتى ماتت ..

وكانت قد أصيبت فجأة ـ وفى منتصف الليل ـ بذبحة، وكانت من شدة التمزيق الذى تحسه فى صدرها تخبط بيديها فى الهواء كالذى ألقى به فى الماء وهو لا يعرف السباحة .. وظلت تقاوم الداء تسعة أيام بقوة إرادة الحياة .. ولم أرَ منها ما يدل على التضعضع والانهزام إلا قبيل الوفاة بدقائق ..

وكنت أناولها الدواء، فأشاحت بوجهها عنه، فألححت. فقالت : إرضاء لك فقط وشربته، ثم ماتت فاختلجت شفتاها، فوضعت يدى على فمها فلم أشعر بنفس فجسست النبض فإذا هو قد انقطع .. وكان أخى وغيره يحيطون بنا، فخفت الضجة المعتادة والفوضى التى تعقبها. فتكلفت الابتسام وقلبى ينفطر، وقلت اخرجوا فإنها نائمة فلا تزعجوها .. واستبقيت سيدة من قريباتى لى ثقة بعقلها، وأطلعتها على الحقيقة، فهمت بصرخة، فكتمتها بيدى قبل أن يعلو بها الصوت، وأنذرتها أن ألحقها بأمى إذا صاحت أو ولولت قبل أن يتم المألوف من تجهيز الموتى، فأقبلت على الثياب تخرجها من خزانتها، وتركتها لتلبسها إياها، فلما فرغت نقرت على الباب، فدخلت وودعت أمى. قلت : الآن أذيعى الخبر ..

وقد ظل أخى زمناً لا يغفر لى أنى خدعته وكذبت عليه ..

تلك هى أمى، وتلك هى بعض خطوط الصورة، وإنى لجليد فى العادة، ولكن موتها هدنى، فقد كانت لى أمّـا وأباً وأختاً وصديقاً، ولو أن أبى كان حياً لكان الأرجح ألا أطيق معايشته لا لنقم منى عليه، بل لأنى لا أحتمل أن يكون لبيتى سيد غيرى، وأحسب ذلك لأن أمى ربتنى على الاستقلال، وعلمتنى أن أكون حراً، ولكنى كنت أخضع لها وأذعن لإرادتها، ولا أنبو فى يديها، ولا أبغى سوى رضاها .. كان يسرنى أن تثور بى وتلعننى، ثم تعفو عنى وتدعو لى .. وقد كنت أعيش لها كما عَاشت لى ولأخى ..

فالآن لا أدرى لمن أعيش بعدها، نعم لى أبناء وزوجة، ولكنا جميعاً كنا فى حياتها أبناءها، وكان شعورنا أنا سواء فى بيوتنا لها ولم نكن زوجين وأولاداً، بل إخوة، وهى أمنا كلنا .. فلما خلا مكانها أحسسنا كأن هذا العقد قد انتثرت حباته؛ فنحن لهذا حائرون، ينقص عواطفنا التوجيه والتسديد ..

* * *

(الأُم المنتظرة)

* **يقول محمد فائق الجوهرى :**

ـ لا وظيفة فى الحياة أهم من الأمومة .. فإنه يتوقف عليها حفظ السلالة البشرية ودوامها مادامت على هذه الأرض الحياة ..

ونحن الآن قد خرجنا من ذلك العصر المملوء نفاقاً، والذى كانت تتجه فيه كل الجهود إلى أخفاء ظواهر الأمومة .. صحيح أن الفن والأدب قد جعلا من الأمومة مثلاً أعلى .. وأظهر للرجال مقدار الفضل الذى تطوق به الأمهات أعناقهم .. ومع ذلك فإن فضل الأم فى هذه الناحية لايزال غير معروف على تمامه .. وذلك بسبب الإخفاء المتعمد لحقائق الأمور أو النظر إليها بعين مغرضة ..

وحب الأم إن لم يكن أقوى أنواع الحب فهو بغير نزاع أطهرها وأبعدها عن كل أنانية .. فالأم تضحى بكل شىء فى سبيل ولدها دون أن ترجو فى مقابل ذلك شيئاً.. والأم من البشر تقاتل فى سبيل ولدها، كما تقاتل الأم المتوحشة من ساكنات الآجام .. ولكن قتالها هذا لا ينطوى على شىء من الأنانية أو حب الذات؛ لأنها لا تنتظر من وراء ذلك أى مقابل ..

وحب الأم ينظر إلى الابن فى حد ذاته، ولا يعتد بما يمكن أن يتصف به ذلك الابن من حسن أو قبح .. فالأم لا يزيد من حبها لابنها مؤهلاته .. ولا ينقص منه عدم هذه المؤهلات .. حتى إن لكل أفاق أثيم أماً تحبه كسائر الأمهات ..

وقد روى (السير هول كين) فى بحث له فى هذا الموضوع قصة شاب حوكم على جريمة قتل وحشية ارتكبها .. وكانت كل الدلائل ضده، فأصدر القضاة حكمهم عليه بالإعدام .. وخرج الحضور وهم يشعرون بأن المجرم قد لقى جزاء وفاقاً .. ولكن امرأة واحدة كانت جالسة تبكى فى ركن من أركان القاعة .. وقد جفت الدموع من مآقيها .. وكانت هذه هى أُم المجرم المنكود ..

هذا هو حُب الأم وهو وسيلة من الوسائل التى يعتمد عليها الخالق جل شأنه فى إقامة دعائم الحياة .. وفى الواقع فإنه لولا هذا الحب القوى العجيب المجرد من كل أنانية والذى تحمله كل أم لفلذة كبدها ـ لما تعرضت أم راضية مغتبطة لذلك الخطر الذى تستهدف له فى سبيل الإتيان إلى هذا العالم بولد جديد ..

وقد حدث أنه عندما كشفت جثة الرحالة المعروف (أندريه) أن أرسلت بقايا هذه الجثة إلى موطنه فى السويد لأجل أن تدفن فى القبر الذى دفنت فيه أمه؛ وذلك لأنه قد أوصى فى حياته إذا توفى وكائناً ما يكون المكان الذى تحدث فيه هذه الوفاة أن يوسد جسده التراب فى ذات القبر الذى تتوسده تلك السيدة التى أتت به إلى هذا العالم ..

ونحن نعرف أن الأمومة لا تلقى دواماً مثل هذا التقدير .. بل إن تضحياتها وواجباتها لتلقى فى كثير من الأحوال كثيراً من النكران وعدم العرفان بالجميل .. ولكن من الحقائق كذلك أن المباهج والمسرات التى تتأتى من الأمومة والأبوة هى أثمن لدى الناس من كل ما يمكن أن يشترى بالمال والنضار ..

وقد كتب الدكتور (هنرى جورج) فى كتاب له عن الولادة عن الأشخاص الذين يجب أن يحضروا الأم فى ساعة الولادة فقال :

ـ «إن أول الذين يجب أن يحضروا ولادة الأم المنتظرة هو زوجها .. فقد وجدت من تجاربى أن أحداً ليس له على الأم مثل ذلك التأثير الملطف والمهدئ كأن يكون إلى جانبها ساعة الولادة .. ذلك الذى كان سبباً فى تلك الآلام التى تحس بها فى هذه الساعة ..

وتباً لأولئك الرجال الضعفاء الخائرى القوى شحب الوجوه الذين تغلب عليهم الأثرة والأنانية، والذين يقررون أنهم لا يستطيعون أن يروا الدماء؛ ولذلك فإنهم ينسحبون من غرفة الولادة إلى غرفة أخرى حتى لا يسمعوا صرخات زوجاتهم وهن يعانين آلام الوضع .. إن مثل هؤلاء الرجال غير جديرين بحب المرأة .. ولا صالحين لتحمل واجبات الأبوة ..

* وقد استطرد فقال :

ـ أما ثانى من يجب أن يحضروا ساعة الولادة فهو الأم إن لم تكن قد بلغت من الكبر عتياً .. أو كانت فياضة العاطفة .. أو شديدة اضطراب الأعصاب .. فإن فى وجودها ما يطمئن الوالدة على سلامتها؛ لأن فى وجودها دليلا قاطعا على أن الوالدة تستطيع أن تخرج من هذه المحنة التى تعانيها حية سليمة، ويطول ـ بعد ذلك ـ بقاؤها ..

لقد تقدم العلم كثيراً فى هذه الأيام .. وقلّت بذلك مصاعب وأخطار الولادة .. ويتجه التقليد ألا يحضر الولادة غير الطبيب المولد والممرضة .. ولكن لا شك ـ كما يقول (برنار مكفادن) ـ فى أن هذه الاعتبارات الأخلاقية والعملية التى ذكرها الدكتور (هنرى جورج) فى كتابه خليقة بالتقدير والاعتبار ..

والواقع أن هذه الحقائق على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لأولئك الذين ينتظر أن يكونوا آباء أو أمهات .. فإن الاحترام والتقدير ليسا يكفيان، بل يجب أن يقترن بهما العلم الصحيح بالنواحى العلمية والعملية للحمل والولادة ..

فنحن إذا كان يطلب منا أن نقدر الأم ونحترمها، فإنه يجب أن نضع نصب عيوننا فى المكان الأول أن نحافظ على سلامتها .. وأن نجنبها ما أمكن جميع المتاعب والمخاطر التى تقترن بالإنسان ..

ولقد كتب (رالف والد امرسون) يصف الشجاعة، فقال : إنها تنحصر فى أن نكون قد عملنا الشيء مرة قبل ذلك .. أما إذا كنا نواجه هذا الشيء لأول مرة، فإنه يجب علينا أن نعتمد على تجارب الآخرين .. وهذا هو الاعتبار الذى لاحظناه فى تقديم هذا الكتاب .. فإننا إنما رمينا إلى أن ننفث فى نفس الأم، وفى نفس الأب تلك الشجاعة التى تأتى للإنسان نتيجة المعرفة .. وأن نخفف من مخاوفهما بإرشادهما كيف يتقيان تلك الأخطار والآلام التى فرضتها المدنية على هذه العملية الطبيعية الصرفة التى استطاعت أن تحفظ السلالة البشرية بغير علم، ولا طبيب ولا ممرضات ولا أدوية إلى أن تسلمها هؤلاء جميعاً ..

* * *

(الحُب .. والأم(*))

* بقلم الأستاذ محمد عبد الغنى حسن

(١٩٠٧ - ٠٠٠)

أُمَّـاهُ، هَـلْ أحـدٌ يَـرُدُّ جوابى ... صوتى بغير حماك غيرُ مُجاب
الكونُ أجملُـهُ المحبةُ حُلْـوةً ... ما نحنُ مـنْ حَـجَـرٍ ولا أخشاب
ما أظلمَ الدنيا بغير محبة! ... ما أتعسَ الدنيا بلا أحباب!
الحُبُّ إكسيرُ الحياة وسرُّها ... وجمالُها المنسابُ فى الأعصاب
نُسْـقَـاهُ مختـومَ الرَّحيـقِ كأنمـا ... نُسْقى بنَـشْوته أَلـذَّ شـرابَ

* * *

الحَبُّ - يا أُمَّـاهُ - منك مزاجُـه ... مهما شَربنا فيه مـنْ أكـواب
نَـلْهو بما سَـمَـحَ الزَّمـانُ بحُسْنه ... ونُطيقُ كُـلَّ شَـقَاوةٍ وعَـذَاب
ونكادُ نَـلْـقَى فيه كُـلَّ خَـسَارَةٍ ... ونكادُ نحْمِل فيه كُـلَّ تبـاب
لولاك لَـمْ نَـعْـرُجْ على أعتابـه ... يوماً، ولم نُـلْمم على الأبـواب
لكن حُـبَّكِ فيه كُـلُّ قَـداسة الـ ... ـمَـغْـنَى، وكُـلُّ طَهارةِ المحراب

* * *

أُمـاه، بين يديك زوجتى التى ... أحببتها، فَـحَـبَـبْتِ فىَّ شبابى
ما الذنبُ ذنبى إنْ كَلِفْـتُ بحُـبِّها ... أو إنَ وَصَـلْـتُ بحَبْلها أسبابى
فالحُبُّ منك عَـرَفْـتُهُ وسَقيتُـه ... مُترقْـرقاً، كالجدول المُنساب
أنت التى سَلسلته فى هيكلى ... وأذبْتِـه كالشَّـهْد بين لُعابى
وأذعتِـه كالطِّيب يَـنْفخ مَـنْكبى ... وتفوحُ من أَرَجٍ به أثوابى

* * *

(*) المجلة - مارس سنة ١٩٦١ ..

يا أُمهات اليوم تلك تحيّـةٌ مـنْ والدٍ، وابنٍ بغيرِ تصابى
إنْ كانَ جَلّـلنى المشيبُ فإننى مَازلتَ مِنْ أُمى بخير رِحـابِ

* * *

يا باذلات الحُـبَّ طُـهْراً صافياً فى غير ما جَـلَبٍ ولا تَـصْخابِ
أنتـن أنفَـاس الحيـاة وطيبهـا وجمالهـا الـدفـاق بالأطيـابَ
كل الجمال ـ بغير أُمٍّ ـ باهتٌ لا حُـسْـنَ فيه، وكلُّ ضـوءٍ خابى

* * *

مَـنْ لليتيم وقد تَـصَـوَّحَ نَـبْتُـه منْ كُلِّ رَوْضٍ مُثمـرٍ معْـشَاب؟
فمهادُه خشنُ المواضعِ جامـدٌ وفِراشُـه قَلَقُ المضاجَـعِ نابى
اللهَ فيه .. فكلُّ بِـرٍّ مُـثْمـرٍ فيه .. وكَلُّ صَنيعةٍ بثـوابِ